أقصوصة من تشيكوف

١ ـ فى القرافة[1]

للأستاذ دريني خشبة

« الريح موشكة أن تهب فتكون عاصفة ، والليل موشك أن يضرب فوقنا بجرانه ، أفلا يخلق بنا أن نعود أدراجنا إلى المدينة ؟ ! »

هذا حق فلقد كانت الرياح تزمزم فى أشجار البتولا[2] فتملأ مخارف الوادى بأوراقها اليوابس ، وكانت شآبيب البرد قد أخذت تنهل فوق رؤوسنا فتنضح ثيابنا وتلفحنا ببَرد شديد ؛ وانزلجت رجل أحدنا فتعلق بصليب شاحب شاخص ليتفادى السقوط فى

(١) ذكر صاحب القاموس أن القرافة هى قرافة القاهرة خاصة والمقصود بها هنا الجبانة

(٢) البتولا (Pirch) شجرة صلبة الخشب ذات لحاء أبيض ناعم تغرس عادة فوق المقابر الروسية

سَكَنَ اللَّيْلُ فَمَا لِلْـــقَلْبِ يَخْفُوهُ سُكُونُهْ
كَمْ وَكَمْ أَقْسَمَ أَنْ يَسْـــلُو فَمَا بَرَّتْ يَمِينُهْ
كُلَّمَا ظَنَّ سُلُوًّا كَذَبَتْ فِيـهِ ظُنُونُهْ
كَمْ فُنُونٍ ذَاقَ فِى الحُـــبِّ وَلِلحُبِّ فُنُونُهْ
فَلْيَذُقْ مَا شَاءَ مِنْـهُ مَا رَعَى العَهْدَ أَمِينُهْ
أَيُّهَـــا اللَّائِمُ دَعْهُ فَلَهُ فِى الحُبِّ دِينُهْ

أحمد الزين

الوحل ، فلما اعتدل وقف مسبوهاً أمام اللوحة الرخامية وراح يقرأ اسم صاحب المقبرة :

« بيجور جريازنوروكوف ... مستشار ملكى وفارس »

أوه ! لقد كنت أعرف هذا السيد ، المغفور له ، لقد كان مشغوفاً بامرأته حباً ، وكان يمتثل أوامر ستانسلاف ... ولم يقرأ فى حياته شيئاً ... وكانت معدته تهضم الحديد ... فيا للحياة التى كانت حَرِيّة أن تمتد وأن تستطيل ! لماذا مات يا ترى هذا ال (بيجور) ؟ ! إنه لم تكن به حاجة إلى الموت ، فلماذا قضى ؟ ! وا أسفاه عليه ! إنما هى عين المنية التى لا تنفع فيها التمائم قد أرصدت له ؛ فراح المسكين ضحية التجسس والفضول ! !

ذاك أنه كان يسترق السمع يوماً خلال ثقب المفتاح فى منزل بعض أهله ، وكان من دأبه أن يتلصص عليهم دائماً ، فانفتح الباب فجأة ، وانفدغ الرأس الكريم ، وسقط بيجور يتشحط فى دمه ، ثم مات على الأثر !

وصاحب هذه المقبرة !

مسكين جداً ... لم يكن يعاف شيئاً فى حياته ، كما كان يعاف الشعر ... والشعراء ! فانظروا كيف سخر به الشعر الذى كان يعافه ، ويشمئز منه ، ويضيق به صدره ! لقد جصّصوا مقبرته كلها بأبيات من الشعر هى السخف بعينه ... مسكين يا هذا ، ذق إذن ... وتقزز ما شئت ... إنك لأنت العزيز الكريم !

من القادم يا ترى ؟

إنه فقير آفاق يلبس معطفاً كله رِقَع وأسمال ! ويْ ! إن له لوجهاً ناصعاً ! بخٍ بخٍ أيها البائس ! إنه يتأبط زجاجة من البودكا ! ترى منذا الذى يشرب نخبه هنا هذا الفقير ؟ ها ها ! !

إن الفتى يحمل نقله (مزّته [1]) فى جيبه حَوَايا [2] ، فهى تظل معه لتودع العالم هى الأخرى !

وتربع الرجل قليلاً ، ثم سأل فى صوت مبحوح محشرج :

— أين قبر موسخين الممثل يا هذا ؟

وقدناه إلى قبر موسخين الذى مات منذ حولين

وسألته أنا وفى نفسى منه أشياء :

— أكاتب حكوى أنت يا صاح ؟ !

فقال :

— كلا ! بل أنا ممثل ! ماذا أصاب الناس فى هذا العصر ؟ مالهم لا يفرقون بين الوظفين والممثلين ؟ ولكن ... حسن ؟ لا ضير !

* * *

لقد اندثر قبر موسخين أو كاد ، ولقد سطع منه ريح كريه منتن ، ونمت فوقه أعشاب الفناء الشاحبة الشوكية حتى أوشكت تخفيه عن الأبصار ! إنه لا يشبه القبور الجاثمة هنا ... يا للصليب الموجع الرخيص المائل المكسو بالطحلب [3] السادر المكتئب ، الذى يبدو كأنه سيموت هو أيضاً !

لقد نقشت على اللوحة المتآكلة هذه العبارة التى ذهبت يد العفاء ببعض حروفها :

(... الصديق المنسى ، موسخين !)

فيا للزمان !

لقد أودى بالحروف الأولى التى كانت تجمل هذه العبارة أكذوبة الأكاذيب !

قال الممثل :

« ويحك يا موسخين ، وسحائب رضوان الله عليك ! ! ما أشقاك بهؤلاء الممثلين ورجال الصحافة ، الذين اكتتبوا بنقود ليشيدوا ضريحك ونُصْبَك ثم أكلوها فيما بينهم ... ! أسحتهم الله بأكلهم هذا المال ! »

ثم سجد فى خشوع وعفر وجنتيه وجبينه بالثرى الندّى

وقلت أسأله :

— ماذا تعنى يا صاح ؟ كيف أكلوها فيما بينهم ؟

فقال :

— ما أيسر هذا أيها الأخ ! لقد فتحوا الاكتتاب ، وأعلنوا أسماء المتبرعين فى الصحف ... ثم ... لا ضريح ولا نصب ، لأنهم أكلوا النقود فيما بينهم ... وكان الله حسيبهم ... ! وأنا بالطبع لا أقول هذا استنكاراً لصنيعهم ، ولكن لتعلم ماصنعوا ... نُخبكم أيها السادة ، ونُخب الراقد هنا — موسخين — المسكين ! فى سبيل ذكراه الخالدة هذه الكأس ! »

واحتسى كأس البودكا ، والتهم حوية من حواياه ، ثم قال :

— يقول الفرنيون (فى صحتكم) حين نقول نحن (نخبكم) .. فيا لله ! أى صحة فى ابنة الكرم ، وأى عافية فى أن يصبح الفتى مجنوناً بها ، عاكفاً عليها ، مخبولاً مدمناً ؟ ... هذا ... وأى ذكرى خالدة نرجوها لهذا الفتى ؟ ! إن الذكرى الخالدة معناها الألم الخالد ... وخير من ذاك أن نبتهل إلى الله ليجعلها ذكرى ... مؤقتة ، وهما فى مذهبى سيان !

— إن هذا حق لا ريب فيه ! فقد عاش موسخين رجلاً ذائع الصيت طائر الذكر ، ولما مات حملوا عشرين إكليلاً من أنضر الأزهار حول نعشه ... وما كاد يوسّد فى الثرى حتى نسيه الجميع !

— ومن نسيه ؟ ! لقد كان محبوه ، والمعجبون به ، فى المقدمة ! ! ومن ظل إلى اليوم يردد ذكراه ؟ ! أعداؤه يا سادة ! أعداؤه الذين عاش طوال عمره يشنّ عليهم حربه الضروس الشعواء ! !

— فأنا مثلاً ... لن أنساه ما حييت ! أبدا ، أبداً ... فأنا لم ينلنى منه غير الأذى ، لقد كان مولعاً بالحاق الأضرار بى ! فأنا لا أحبه ، بل ، أمقته !

فقلت له : وكيف كان إيذاؤه لك يا صاح ؟

فتأوه من أعماقه ، وانتشرت سحابة من الهم فوق وجهه الكاسف ، ثم قال : « أبلغ الإيذاء أيها الصديق ! لقد كان لصاً خبيثاً محتالاً ، فلا عفا الله عنه ! ! أتصدق أننى لم أصبح ممثلاً

(١ — ٢) المزة هى الخمر ونحن نستعملها هنا بمعناها المعروف لدى الخمارين (الطعام القليل الذى يؤكل مع الخمر) على سبيل المجاز . والحوايا أحشاء البهيم الداخلية والمقصود بها هنا (السجق)

(٣) خضرة تعلو الماء الآسن وسطح البناء من الندى

إلا بفضل إصغائى إليه وشغفي به ، وإنعام النظر إليه ؟ لقد خلبنى بفنه ، وسحرنى بلفتاته ، ونفث فى صدرى روح الكبر والغرور والخيلاء فنزحت عن الديار بسببه ، واحتملت بلاء الغربة فى سبيل ما وعدنى من الغنى الضخم ، والثراء الواسع ... ولكن ... واحسرتاه علىّ ! ! إنى لم أجن من كل مواعيده إلا الدموع والأشجان !! وإلا الجد العاثر الذى هو نصيب الممثل من الحياة !!

« لقد فقدت كل شىء !! فقدت شبابى ، فقدت عِفتى ، فقدت أخلاق ، فقدت استقامتى ، ثم ... فقدت الله ! !

« هأنذا يا صاح لا أملك الدانق الذى أمتع به نفسى ، وأرفه به عن قلبى ... وهاك حذائي !! يا ربى لقد خصَفته حتى استحييت من كثرة الخصف ، فها هو عقبى نَعِل له ! !

« وهاك (بنطلونى) ! ! لقد رفوته ورقعته ، حتى لقد ذهب الأصل وبقى الرقع ! !

« وهاك وجهى القبيح الشائه ... أليس يبدو كأنما هبره[1] كلب ! !

« ثم إيمانى ؟ ! لقد انتزع اللئيم إيمانى بالله ، وأغرانى بحرية الفكر ! ؟ ها ... حرية الفكر ؟ ! هذا الدماغ الفارغ العاجز يجب أن يكون حر التفكير ؟ ! أسمعت ؟ ! أليست هذه خرافة ؟ ألص ! لقد سلبنى لبي وسرق منى عقيدتى وإسلامى لله ! ثم أى جدوى عادت على ؟ ماذا كان الثمن الذى اقتضيته حينما خسرت حسن اعتقادى ؟ ! لاشىء !

« لقد اشتد البرد أيها السادة ، والريح يا رفاق ريح صر ، أفلا تشربون كأساً ؟ ! إن بالقارورة الصفراء ذات الأعنة ، ما يكفينا جميعاً ... ألا تشربون ؟ !

« هلم نشرب نخب هذا الجبار الثاوى هنا

« إنى لا أحبه ... بل ... إنى أمقته

« إنه ميت ... لقد انتهى فيما كان يزعم ... لن تقوم له قيامة بعد اليوم الملحد الكافر ... أوه ! مالى أسبه وقد كنت أحبه ؟ ! إنه كل شىء لى فى هذه الحياة ! إنه كأى جزء من جسمانى عزيز علىّ ! آه ! لن أراه بعد اليوم !

« لقد قال الأطباء إنى سأموت قريباً بسبب إدمانى ، ولذا أتيت إلى قبره أودعه ، إذ ينبغى أن نصفح عن أعدائنا وأن نغفر لهم خطاياهم ! ألسنا سائرين فى دربهم الأبدى ؟

* * *

وهنا بدا لنا الممثل فى مسوح ملك الموت ففزعنا ، وتركناه يناجى موسخين ، وسرنا فى طريقنا السادر الموحش مدبرين !

وطلّعنا رذاذ خفيف حلو فأنعش نفوسنا التى وجمت منذ حين

وعند المنعطف الذى يؤدى إلى المدينة حيث تنتثر الحصباء الناصعة كالدر فوق الأرض المرصعة بالبَرَد ، لقينا جنازة مقبلة .. جنازة صغيرة متواضعة ... أربعة أشخاص لاغير يحملون نعشاً حزيناً ... عاطلا !

وكان الظلام قد نشر فوق الكون طيلسانه ، فأخذ حاملو النعش يهرولون بحملهم وهم يتزلجون ويتخلجون ، والآلة الحدباء تتأرجح فوق أكتافهم ذات اليمين وذات الشمال

« يا رفاق ! ما هذه الدنيا ؟ إننا لم نمكث هنا غير ساعة أو ساعتين ، وهذا هو الميت الرابع ! ... هلموا بنا ... »

دريني خشبه

(١) هبره : قطعه ومزقه

٢٨ ـ ١٠

فى أصول الأدب

للأستاذ احمد حسن الزيات

كتاب جديد فريد فى نوعه . يشتمل على أبحاث تحليلية طريفة فى الأدب العربى وتاريخه . منها تاريخ الأدب وحظ العرب منه . العوامل المؤثرة فى الأدب . أثر الحضارة العربية فى العلم والعالم تاريخ حياة ألف ليلة وليلة وهو أوفى بحث كتب فى هذا الموضوع إلى اليوم . ثم قواعد تفصيلية للرواية التمثيلية الخ الخ ...

يطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنه ١٢ قرشا